

هو يكملكم ويثبتكم ويقويكم ويمكنكم

يتطلع الكثيرون إلى شهدائنا المعاصرين بغيرة شديدة مشتاقين أن يصيروا هم أيضاً حملاناً مذبوحة على مذبح الاستشهاد. وعلى الرغم أن تلك لاشتياقات لا تخلو من حماسة وإندفاعية العواطف البشرية إلا أن الله يُسر بها.

حدث الإستشهاد هو في الواقع حدث يفوق كل إمكانيات الإنسان الطبيعي. فمن ذا لا يجزع أمام بشاعة الطرق التي يتفنن الذئب في اختراعها من أجل التنكيل بالحمل وإذلاله؟ ومن ذا لا يرتعب من جيوش الشر المجيشة ضد القطيع الصغير لكي تفتك به متخذة من الكراهية والبغضة وقوداً مغذياً لكل تحركاتها؟ ومن ذا لا يتعجب أيضاً من هدوء وصمود ووداعة الشهيد؟

وعلى الرغم من أن مشهد الاستشهاد يتكون من ساحة استشهاد، وقتلة فقدوا كل معالم الإنسانية، وضحايا يساقون بمذلة إلى الموت، ومتفرجين في أنحاء العالم كله إلا أن الكواليس تحتوي على الكثير. فالاستشهاد هو في الواقع ذروة الصراع بين عمليين: عمل الشيطان في قلوب أتباعه، وعمل الروح القدس في قلوب المنقادين به.

نعم الاستشهاد هو عمل وعطية الروح القدس وحده، فإنساننا العتيق لا يقوى بأي حال من الأحوال على احتمال ولو ظل الموت الموجود في تلك اللحظات. وكيف له ذلك وهو الذي اعتاد عبادة الذات، وعدم احتمال الإهانات، والاندفاع بغضب ضد ظالميه، وإدانة المعتدين على حقوقه؟ كيف يمكن لشهيد أن يواجه الموت وإنسانه العتيق حي؟ فقوانين الذات ولوائحها لا تقبل التنازل عن الحريات والحقوق، وأي حق أعظم وأجل من حق الحياة؟! كيف يمكن لشهيد أن يصير صورة حياة لفاديه دون أن يكون الروح القدس هو العامل فيه بقوة وفاعلية؟

هوذا بطرس الرسول قد أدرك هذا القانون الروحي فقال: "والله كل نعمة الي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع، بعدما تألمتم يسيراً، هو يكملكم ويثبتكم ويقويكم ويمكنكم" (ابطه: ١٠). حقاً ما أروع وأدق تلك الكلمات! فالذي يتألم من أجل المسيح يتولى الروح القدس مهمة تثبيته، وتقويته، وتمكينه حتى يصل به إلى الكمال من خلال الاستشهاد. والكمال الذي يطالبنا به السيد المسيح هو الوصول إلى قياس قامة ملء المسيح. وليس الاستشهاد هو الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا الكمال وإن كان هو أكثرها وضوحاً وتجلياً. فأي صورة تعبر عن الوصول إلى التشبه الحقيقي بالمسيح أكثر من صورة شهيد "كشاه تساق إلى الذبح وكنعجة صامته أمام جازيها" (إش: ٥٣: ٧)؟!

فيا روح الله القدوس، هوذا العالم كله يتعجب من عملك في الشهداء. وها نحن نضع أنفسنا تحت تصرفك كشهداء تحت الطلب مشتاقين أن ننال نصيبهم. إلا أننا في حال رديئة إذ قد تضخمت ذواتنا حتى

صرنا في أشد الحاجة إلى جراحة عاجلة لاستئصال جذري لكل أورام الأنا الخبيثة. نتضرع إليك أن تكون طبيبنا الماهر ومرشدنا الأمين حتى إذا ما سلمنا حياتنا بين يديك نحصل منك وحدك على التثبيت والقوة والتمكين فنصل بك وفيك إلى كمال الإستشهاد.